مركز المسبار للدراسات والبحوث
Al Mesbar Studies & Research Centre

عاصفة الحزم

التحالفات والأبعاد السياسية

الكتاب 118 أكتوبر (تشرين الأول) 2016

كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث

إيران في اليمن: من محاولة اختراق الجنوب إلى ممارسة لعبة الانتظار

خيرالله خيرالله(*)

مرّت محاولات إيران إيجاد موطئ قدم لها في اليمن منذ انتصار «ثورة الخميني» عام 1979 بمراحل عدة؛ وصولاً إلى الاحتلال الحوثي، أي احتلال «أنصار الله» لصنعاء في الحادي والعشرين من سبتمبر (أيلول) 2014. سمح هذا الاحتلال لغير مسؤول إيراني بالإعلان بكل وقاحة عن أن طهران صارت الآن تسيطر على أربع عواصم عربية: بغداد ودمشق وبيروت وصنعاء.

(*) صحفي وكاتب لبناني.

من هذا المنطلق، لم تكن «عاصفة الحزم» المستمرّة من مارس (آذار) 2015 خطوة عشوائية في اليمن. هذا عائد أوّلاً إلى أنه لم يكن من خيار آخر أمام دول الخليج العربي سوى التدخل عسكرياً من أجل وضع حدّ لعملية تستهدف وضع إيران يدها على اليمن عن طريق الحوثيين، أي «أنصار الله»، مستخدمة السلاح الأمضى الذي تملكه، وهو السلاح المذهبي.

ربما كان انتقال الحوثيين إلى تسمية «أنصار الله» خطوة ذات مغزى كبير، ذلك أن طموحهم كان يتمثّل منذ البداية في لعب الدور الذي يلعبه «حزب الله» في لبنان بصفة كونه ذراعاً إيرانية.

قبل أن يصبحوا «أنصار الله»، وأن ينشئوا ميليشيات سمّوها «اللجان الشعبية» على طريقة «الباسدران» و«الحرس الثوري» في إيران و«حزب الله» في لبنان والميليشيات المذهبية في العراق. كان الحوثيون يطلقون على حركتهم تسمية «الشباب المؤمن». حملوا هذه التسمية، بداية، في سياق المواجهة ذات الطابع المذهبي التي خاضوها مع الإخوان المسلمين وتوابعهم، عندما سعى هؤلاء في تسعينيات القرن الماضي بكل الوسائل المتاحة، خصوصاً عبر بعض الأجهزة التابعة للسلطة اليمنية، فضلاً عن حزب التجمع اليمني للإصلاح، إلى إقامة معاهد دينية في شمال الشمال اليمني.

إلى الآن، نجحت «عاصفة الحزم» في إفشال المشروع الإيراني، وذلك بغض النظر عمّا يقوله موالون لطهران، من أن هدف إيران كان أصلاً إلهاء دول الخليج العربي باليمن، عن طريق استخدام الحوثيين، وذلك كي يخفّ الضغط عليها في سوريا.[1]

كلّ هذا الكلام لا معنى له متى ما عدنا إلى أرض الواقع، وإلى أن اليمن كان منذ أوائل الثمانينيات، من القرن الماضي، هدفاً إيرانياً. هذا عائد إلى عوامل عدّة بينها موقعه الجغرافي والقدرة على التحرّك فيه من جهة، وصولاً إلى الرغبة في

(1) استناداً الى ما كان يقوله صحافيون مرتبطون مباشرة بالأوساط الإيرانية في بيروت.

السيطرة على باب المندب وخلق متاعب للمملكة العربية السعودية، ولكلّ دول الخليج العربي من جهة أخرى. ما لا يمكن تجاهله في أيّ وقت، أن طول الحدود بين المملكة العربية السعودية واليمن يبلغ نحو ألف وخمسمئة كيلومتر. هذه الحدود ذات طبيعة مختلفة ومتنوعة، يسهل التسلل منها إلى الأراضي السعودية في بعض المناطق.

انحياز دولة الجنوب لإيران

لم ينظر اليمنيون إلى الفرس كغزاة في البداية، ذلك أن الذاكرة اليمنية تتحدّث عن الفرس كمحررين من الاحتلال الحبشي قديماً. لكنّ الذي حصل منذ أواخر سبعينيات القرن الماضي ومطلع الثمانينيات انطلاقاً من الجنوب، جعل اليمنيين يعتمدون نظرة أخرى إلى الدور الإيراني، خصوصاً بعدما انحاز اليمن الجنوبي (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) إلى إيران في حربها مع العراق، وذلك في ضوء العلاقة الخاصة التي كانت تربط علي ناصر محمّد، رئيس الدولة والأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني (الحزب الحاكم في الجنوب) من جهة، والرئيس السوري حافظ الأسد، والعلاقة المتوترة مع النظام العراقي من جهة أخرى. كان علي ناصر الرجل الأول في الجنوب بين 1980 و1986. وسيطر على الحزب -إلى حدّ كبير- وعلى أجهزة الدولة، إلى حدّ ما.

في اليوم الذي أزيح عن السلطة، وكان ذلك في الثالث عشر من يناير (كانون الثاني) 1986، كان مفترضاً أن يصل إلى عدن في زيارة رسمية لعلي خامنئي الرئيس الإيراني وقتذاك، و«المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية» الآن. لم تتمّ الزيارة بسبب الأحداث الدموية التي شهدتها صنعاء يومذاك. لكنّ الثابت أن صفحة طويت في العلاقة بين إيران والجنوب بعد إزاحة علي ناصر.

في الواقع، لم تكن إيران الخاسر الأكبر، بعد الهزيمة التي لحقت بعلي ناصر محمّد في المواجهة مع خصومه. كان النظام السوري الخاسر الأول؛ إذ فقد حليفاً استعان به مراراً في معاركه العربية- العربية، بما في ذلك المعركة التي خاضها مع العراق في عهد صدّام حسين. حصلت إيران على أسلحة ومعدات عسكرية كانت في حاجة إليها من كلّ من ليبيا واليمن الجنوبي في حربها مع العراق، وذلك بواسطة

النظام السوري، أو بفضل العلاقة المباشرة التي كانت تربط بين القيادة الإيرانية، وعلى رأسها آية الله الخميني، ومعمّر القذّافي. وعندما قام نظام جديد في عدن، وعلى رأسه علي سالم البيض، سارع صدّام حسين إلى دعمه، على الرغم من أن عدن لم تقطع العلاقات مع طهران، بل حافظت عليها ولكن ضمن حدود معيّنة. أكثر من ذلك، لم يستجب اليمن الجنوبي –وقتذاك– لمطالب عراقية محدّدة شملت تسليم معارضين أو طردهم من أراضيه.

على العكس من ذلك، استمرّ اليمن الجنوبي في توفير حماية لمئات المعارضين العراقيين، خصوصاً من الشيوعيين. كان التفسير المنطقي لهذا التصرّف أن الرجل القوي الجديد في الجنوب، كانت لديه حسابات مرتبطة بالعلاقات القائمة مع الاتحاد السوفيتي، الذي اعتمد خلال الحرب العراقية- الإيرانية بين العامين 1980 و1988 سياسة متوازنة -إلى حد كبير- تأخذ في الاعتبار الرغبة في عدم قطع شعرة معاوية مع طهران.

الوحدة وما بعدها

مع مرور الوقت وظهور أن النظام في اليمن الجنوبي لم يعد قابلاً للحياة، خصوصاً في ظلّ انهيار الاتحاد السوفيتي، لعب صدّام حسين دوراً في تحقيق الوحدة اليمنية، في ظل التقارب الذي تحقّق بينه وبين علي عبدالله صالح، الذي انضمّ عام 1989 إلى «مجلس التعاون العربي» الذي ضمّ، إضافة إلى العراق، كلّا من مصر واليمن. قبل ذلك، لم يتردّد علي عبدالله صالح في إرسال متطوعين إلى العراق للمشاركة في الحرب التي كان يخوضها مع إيران، والتي استمرّت حتّى عام 1988.

بين العامين 1986 و1990، تاريخ تحقيق الوحدة اليمنية، انكفأت إيران يمنياً، لكنّها كانت تتطلع دائماً إلى أي ثغرة تتسلل منها إلى البلد. كانت الثغرة الأولى التي تسللت منها، التباعد الذي حصل بين اليمن ودول مجلس التعاون الخليجي، إثر الغزو العراقي للكويت صيف عام 1990. كانت إيران تعرف دائماً أن علي عبدالله صالح في بحث مستمرّ عن توازنات، إن في داخل اليمن أم على الصعيد الإقليمي. استغلت هذه الحاجة اليمنية في وقت ساءت العلاقات بين الرياض وصنعاء -إلى حد كبير- بعدما

فشلت صنعاء في اتخاذ موقف واضح من الاحتلال العراقي للكويت.

صدر عن مجلس الوزراء اليمني، مباشرة بعد دخول القوات العراقية إلى الكويت في الثاني من أغسطس (آب) 1990، بيان يدين الاحتلال، ويدعو إلى الانسحاب العراقي الفوري من الكويت، لكن الشارع اليمني وجد من يحرّكه بطريقة سلبية، وذلك في غياب القيادة الحكيمة القادرة على ضبطه. وقد حصل بالفعل اعتداء على سفارة المملكة العربية السعودية في العاصمة اليمنية، كان بمثابة القشّة التي قصمت ظهر البعير. كذلك، شهدت صنعاء ومدن يمنية أخرى تظاهرات مؤيّدة لصدام حسين، عكست نوعاً من التحدي المباشر للمملكة العربية السعودية ودول الخليج، التي اتخذت موقفاً حاسماً من الاحتلال العراقي للكويت.

لم تتخذ دولة الوحدة اليمنية الموقف الصحيح من الاحتلال العراقي للكويت. ودفعت ثمناً غالياً في مقابل عدم التزام الموقف السعودي الواضح من الاحتلال العراقي. وكانت النتيجة أن مئات آلاف اليمنيين اضطروا إلى مغادرة السعودية والعودة إلى بلدهم، وذلك من دون أن يكون هناك قرار واضح من الرياض، يقضي بترحيل أبناء الجالية اليمنية بطريقة منهجية كما اعتقد كثيرون.

استغلت إيران الأزمة السعودية- اليمنية في ظل الوحدة، لتعيد محاولاتها التسلل إلى اليمن عبر نشاطات ذات طابع ثقافي واجتماعي. الواقع أنها استغلت بشكل خاص زوال التوتر بين صنعاء وطهران من جهة، ورغبة علي عبدالله صالح في توسيع شبكة علاقاته الإقليمية، بعدما صارت هناك شبه قطيعة بينه وبين دول مجلس التعاون الخليجي، تضاف إليها قطيعة أخرى مع مصر.

كانت السنوات بين 1990 و1994 أشبه بمرحلة انتقالية في ما يخص العلاقات بين إيران واليمن. عمل الحزب الإشتراكي اليمني الذي حكم الجنوب في الماضي، على تمييز نفسه عن علي عبدالله صالح، وذلك عن طريق التقرب من دول الخليج العربية، وعلى رأسها المملكة العربية السعودية. وبلغ هذا التقارب ذروته عندما دعمت معظم الدول الخليجية القرار الذي اتخذه علي سالم البيض، نائب رئيس مجلس الرئاسة في دولة الوحدة، والأمين العام للحزب الاشتراكي. كان هذا القرار

يقضي بالعودة إلى الانفصال، أي عودة اليمن الجنوبي دولة مستقلّة.

في مواجهة احتمالات الحرب الداخلية مع الحزب الاشتراكي المدعوم خليجياً، بحث علي عبدالله صالح عن حلفاء جدد. كانت إيران، التي أعاد مدّ الجسور معها، بين هؤلاء الحلفاء. لكن الدعم الحقيقي في حرب صيف 1994 جاءه من الإخوان المسلمين ومن حزب التجمّع اليمني للإصلاح، الذي كان على رأسه –وقتذاك– الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر. كان الخوف الدائم لعلي عبدالله صالح من الوقوع تحت رحمة الإخوان المسلمين والميليشيات التي شكلوها، والتي حاولوا من خلالها اختراق كلّ المحافظات اليمنية من أقصى الشمال، حيث الوجود الزيدي الكثيف، إلى أقصى الجنوب، مروراً بالوسط الشافعي.

بعد هزيمة المشروع الانفصالي في يوليو (تموز) 1994، حصل في اليمن ما كان يخشاه علي عبدالله صالح، حيث سارعت الميليشيات الإخوانية والسلفية المدعومة من أوساط معيّنة في السلطة، بما في ذلك جهاز الأمن السياسي وقياديون كبار في الجيش، إلى اجتياح المحافظات الجنوبية، وفرض نمط حياة مختلف عليها. جُرفت مزارات دينية، وفرض لبس معيّن على النساء. لم تعد عدن، المدينة المنفتحة على العالم بصفة كونها ميناء مهماً على الصعيد العالمي، تشبه عدن بأي شكل من الأشكال. اضطر ذلك علي عبدالله صالح إلى المكوث أشهر عدة في الجنوب وفي عاصمته، من أجل إعادة الحياة الطبيعية إليها. لكن نجاحه لم يكن سوى نجاح نسبي، فما كتب قد كتب، حتّى إن منزل علي سالم البيض في عدن صار ملكا للشيخ عبدالله الأحمر، فيما عمد ضباط كبار إلى الاستيلاء على أراض ومنازل كانت في حوزة كبار المسؤولين في الجنوب.

لا بدّ من الاعتراف بأن الرئيس اليمني السابق كان يخشى نتائج الحرب. لذلك سعى إلى تفاديها بكلّ الوسائل. لم يفعل ذلك حرصاً على الحزب الاشتراكي، ولكن لأنه كان يعرف أن الحرب ستؤدي إلى انهيار الحزب الذي كان عنصر توازن في المعادلة الداخلية، تلك المعادلة التي كان يحسن التعامل معها وتجييرها لما يخدم مصالحه.

الصعود الحوثي في اليمن

في غياب الحزب الاشتراكي، راح علي عبدالله صالح يبحث عن توازنات جديدة في البلد، خصوصاً بعد الاختراقات التي سجّلها الإخوان والسلفيون في مناطق الشمال الزيدي، وبعدما راحوا يسرحون ويمرحون في الجنوب والوسط. جاء هذا البحث عن توازنات جديدة في وقت زادت الحاجة إلى مجموعة أكثر تماسكاً حول الرئيس. كان اللجوء إلى العائلة الحلّ الوحيد بالنسبة إلى علي عبدالله صالح. برّر هذا اللجوء إلى العائلة المباشرة بقوله: «هؤلاء فريق عملي، كلّ رئيس حرّ في اختيار فريق عمله. عندما أترك الرئاسة يأتي الرئيس الجديد بفريق عمله الذي يثق به...».[2]

صارت القوة الضاربة الأساسية في الجيش بإمرة نجله الأكبر، في حين كانت القوّة الأخرى الموازية لها بإمرة علي محسن صالح الأحمر، قائد الفرقة الأولى/ مدرّع، قريب الرئيس ومنافسه في الوقت ذاته.

صار العميد يحيى محمد عبدالله صالح الرجل القوي في الأمن المركزي؛ المنتشر في كل أنحاء البلاد. كان الأمن المركزي سابقاً في إمرة الشقيق الأكبر لعلي عبدالله صالح: محمّد عبدالله صالح، الذي توفّي عام 2001 بعدما عانى طويلاً من مرض في الكبد. أما العميد طارق محمد عبدالله صالح، فكان قائداً للحرس الخاص المكلف بحماية علي عبدالله صالح، فيما أصبح عمّار محمد عبدالله صالح مديراً لجهاز جديد هو «الأمن القومي» الذي كان بمثابة مقابل للأجهزة الأمنية الأخرى التي كانت فيها شراكة مع الإخوان المسلمين، كـ«الأمن السياسي» –مثلا– الذي كان على رأسه العميد غالب القمش.

بحثاً عن التوازن أيضاً، كان علي عبدالله صالح وراء صعود الحوثيين منذ البداية. فهو الذي فتح لهم طريق «حزب الله» وإيران، وهو الذي حاول استخدامهم إلى أبعد حدود منذ حرب الانفصال في صيف عام 1994، وذلك بعد انتصاره في تلك الحرب بفضل الإخوان المسلمين والسلفيين خصوصاً.

(2) من حديث مباشر ليس للنشر في جلسة خاصة مع علي عبدالله صالح.

بقي علي عبدالله صالح يمارس لعبة التوازنات باستمرار؛ وذلك كي يضع نفسه في موقع الحكم، وكي لا يكون تحت رحمة طرف واحد قوي في البلد. لذلك شجع عبدالله بن حسين الأحمر عام 1990 على تشكيل حزب «التجمع اليمني للإصلاح» بغية إيجاد توازن، يصب في مصلحته، بين الحزب الاشتراكي الآتي من الجنوب بأفكاره العلمانية من جهة، والإسلاميين والقبليين من جهة أخرى. ما لا يمكن تجاهله أن الإصلاح في أيام عبدالله الذي توفّي في أواخر 2007، كان حزباً من ثلاثة مكونات هي: الإخوان، والقبيلة، والسلفيون بزعامة عبدالمجيد الزنداني.

كان الهدف من تشجيع الحوثيين على تشكيل قوّة في البلد ثلاثياً، كان ثلاثة أهداف بهدف واحد.

الهدف الأول: الوقوف في وجه العائلات الزيدية الكبيرة مثل آل المتوكل وآل حميد الدين، الذين كان علي عبدالله صالح، وما يزال، لا يثق بهم. هذه العائلات من محافظة حجة وليس من محافظة صعدة.

الهدف الثاني: أن يظهر للسعوديين، خصوصاً بعد دعمهم للانفصال، أنه قادر على فتح خطوط ما مع إيران، أي إنه لاعب إقليمي، وليس مجرّد رئيس لليمن الفقير.

الهدف الثالث: خلق قوة قادرة على التصدي للمدارس الدينية السلفية والإخوانية التي كان يوجد من يشجع عليها في المناطق الشمالية، بما في ذلك في محافظة صعدة التي هي معقل الحوثيين. بين هذه المدارس كانت مدرسة مقبل الوادعي (سلفي) والتي كان وجودها يزعج الزيود كثيراً. كانوا يعتبرون ذلك تحدّياً لهم في عقر دارهم.

أكثر من مسؤول يمني يؤكد أن علي عبدالله صالح كان يموّل الحوثيين في البداية، وهو من أدخلهم إلى مجلس النواب في الانتخابات الأولى التي جرت بعد انتهاء حرب الانفصال.

لم يكتف علي عبدالله صالح بتمويل الحوثيين، الذين سمّوا أنفسهم ابتداء من عام 1996 «الشباب المؤمن»، بل وفّر لهم وجوداً سياسياً وعلاقات مباشرة مع إيران، التي عملت منذ البداية على استيعابهم مستعينة في الوقت ذاته بـ«حزب الله».

عشرات الحوثيين أقاموا فترات طويلة في قُم، وبدؤوا يتحولون إلى الشيعة الاثني عشرية، التي لا علاقة لها بالزيدية بشكلها التقليدي. وقد استطاع الإيرانيون، بمشاركة عناصر من «حزب الله» تغيير طبيعة قسم من المجتمع الزيدي. صار الزيديون، من الحوثيين، يتبعون الاثني عشرية بكل شيء، بما في ذلك الاحتفال بعاشوراء وبـ«عيد الغدير».[3]

حصلت كلّ هذه التطورات، فيما الخليج منشغل عن اليمن ومشاكله والتطورات الداخلية فيه. كان كلّ همّ السعودية في عهد الملك عبدالله بن عبدالعزيز محصوراً بإقامة علاقات طيّبة مع اليمن، وصولاً إلى توقيع اتفاق ترسيم الحدود بين البلدين، وهذا ما تحقّق عام 2000.

كانت إيران في مرحلة ما بعد حرب الانفصال تراقب الوضع اليمني عن كثب، وتزيد حضورها في البلد في وقت كان هناك شبه انسحاب خليجي وسعودي منه. شمل شبه الانسحاب هذا وقف الدعم عن قبائل يمنية من بينها حاشد وبكيل. اعتاد كبار الشيوخ في هذه القبائل على المساعدات الخليجية، وفي مرحلة معيّنة على كرم صدّام حسين، الذي بقي يدفع لعدد كبير من كبار المشائخ طوال السبعينيات والثمانينيات. لم يعد من وجود لصدّام حسين خارج العراق بعد عام 1990. أمّا دول الخليج، وعلى رأسها السعودية، فقد أصيبت بخيبة أمل بعد انتهاء حرب الانفصال بالطريقة التي انتهت بها.

في الواقع، استغلت إيران وقف كلّ المساعدات الخليجية لتدخل بدورها على خط بناء علاقات مع القبائل اليمنية، التي كانت في معظمها مستاءة من تصرّفات زعماء حاشد في مناطق شمالية معيّنة. أما بكيل، القبيلة الكبيرة الأخرى، فلم تكن تمتلك زعيما كبيرا. وقد سهّل ذلك اختراقها على دفعات، خصوصا في غياب المال

(3) لقاء خاص مع الدكتور عبد الكريم الأرياني.

الخليجي من جهة، والعلاقات التي أقامها علي عبدالله صالح مع شيوخ معيّنين صاروا يكنون له الولاء، بعدما ربطهم بمصالح معيّنة.

نجح الرئيس السابق في إقامة توازنات جديدة في البلد. وحتّى عام 2003، اعتقد علي عبدالله صالح أن الحوثيين في جيبه. لكن حادثة وقعت تلك السنة جعلته يعيد النظر في حساباته. اكتشف الرئيس اليمني السابق الذي كان يمرّ بمحافظة صعدة في طريقه لتأدية فريضة الحج أن الحوثيين صاروا شيئا آخر، وأنهم انقلبوا عليه. توقف علي عبدالله صالح في صعدة. كان في طريقه إلى مكة براً لتأكيد تطور العلاقات مع السعودية بعد توقيعه اتفاق ترسيم الحدود مع الملك عبدالله بن عبدالعزيز.

الحرب مع الحوثيين

فوجىء علي عبدالله صالح بعد انتهائه من إلقاء خطبة صلاة الجمعة في المسجد الأهمّ في صعدة بوقوف شخص من الحوثيين وإطلاقه ما بات يسمّى بـ«الصرخة». و«الصرخة» هي «الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود، النصر للإسلام»[4].

فهم علي عبدالله صالح أن إيران استوعبت الحوثيين، وأنه لم يعد يتحكّم بهم كما كان يعتقد. كان أول ما فعله أن أمر بحملة اعتقالات في صفوف الحوثيين، وذلك ردّاً على تحديه في صعدة الذي كان تحدّياً مباشراً لشخصه. كانت تلك الإشارة الأولى لبدء ست حروب استمرت بين 2004 وأوائل 2010.

تواجه الجيش اليمني مع الحوثيين في الحروب الست التي سقط فيها آلاف الضحايا، وقتل خلالها حسين بدر الدين الحوثي شقيق عبدالملك الحوثي الأكبر، الذي يتزعّم الحوثيين حالياً. كان علي عبدالله صالح نفسه يقول لي: «بيني وبين الحوثيين ثلاثين ألف شهيد وست حروب». كان ذلك في العامين اللذين سبقا «عاصفة الحزم».

(4) لقاء خاص مع الدكتور عبد الكريم الارياني ومع شخصيات يمنية أخرى.

لم يدرِ علي عبدالله صالح أن إيران متورطة أكثر بكثير مما يعتقد في دعم الحوثيين وتوجيههم نحو الاثني عشرية. لم يدرِ أيضاً أن «حزب الله» متورط إلى أبعد الحدود مع الحوثيين، إن من ناحية التدريب، أو من ناحية تزويدهم بالأسلحة، وحتى بالنسبة إلى بناء شبكة اتصالات لهم لا تخضع لمراقبة السلطات اليمنية.

أخطر ما في الحروب الست التي جرت أنها كانت على خلفية التوريث في اليمن. حاول علي عبدالله صالح استغلالها للتخلص من خصمه اللدود اللواء علي محسن صالح الأحمر، الذي كان يطمح إلى خلافته، والذي كان يعترض على توريث أحمد علي عبدالله صالح. لم يُرد علي عبدالله صالح في أي يوم حسم الحروب مع الحوثيين. ربّما، لم يكن يستطيع ذلك، ففضّل توظيف تلك الحروب لتحقيق غايات محدّدة. كان على رأس هذه الغايات توريط خصومه من الإخوان المسلمين في الدم الحوثي.

تمكّن علي عبدالله صالح من احتواء الحوثيين في منطقتهم، على الرغم من معرفته التامة ابتداء من عام 2003، وليس قبل ذلك، بعمق العلاقة بينهم وبين إيران واستقلالهم عنه نهائياً. لم يستطع في أي وقت إلحاق هزيمة كاسحة بهم. وهذا عائد إلى أسباب عدة. من بين تلك الأسباب أنه لم يكن يريد انتصاراً للحوثيين على علي محسن صالح الأحمر، أو انتصاراً لعلي محسن صالح الأحمر على الحوثيين. كان يريد أن يستنزف كلّ منهما الآخر، وذلك كي يبقى هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في البلد وصولا إلى توريث نجله.

معروف أن علي محسن صالح الأحمر، وهو من قرية علي عبدالله صالح (بيت الأحمر في مديرية سنحان) وقريب منه عائلياً، وهو ينتمي إلى الإخوان المسلمين. وكان متحالفاً مع الشيخ حميد الأحمر، نجل الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر. كان علي محسن يمتلك نفوذاً كبيراً في الجيش، بصفة كونه قائد الفرقة الأولى/ مدرّع. كانت هذه الفرقة تعتبر من بين الأقوى في الجيش اليمني. وكانت بمثابة قوّة موازية للحرس الجمهوري بقيادة أحمد علي عبدالله صالح.

أدى انقلاب حميد الأحمر وعلي محسن، على عبدالله صالح، والذي نُفِّذ مع انطلاق ثورة الشباب في 2011 إلى فكّ الحصار عن الحوثيين، الذين ما لبثوا أن تمددوا في كل أنحاء البلد، بعد سيطرتهم على محافظة عمران، وصولا إلى صنعاء ثم إلى محيطها. اتجهوا بعد ذلك إلى الوسط ثم إلى عدن، قبل أن تجبرهم «عاصفة الحزم» على التراجع.

خلاصة الأمر، أن الحوثيين انقلبوا على علي عبدالله صالح الذي صنعهم، وهم الآن متحالفون معه بسبب حاجة كل منهما إلى الآخر في مواجهة عدو مشترك هو السعودية والإخوان، وآل الأحمر الذين كانوا حتّى يوليو (تموز) 2014 زعماء حاشد التي تعتبر القبيلة الأكثر تماسكا في اليمن.

مغالطات التقليل من الدور الإيراني

المفارقة أن علي عبدالله صالح يسعى في هذه المرحلة إلى التقليل من الدور الإيراني في اليمن، وذلك في سياق محاولته إظهار الحوثيين بأنهم مجرد طرف يمني وجزء من المعادلة في البلد. وهذا صحيح إلى حد كبير، ذلك أن سكان المناطق التي يقيم فيها الحوثيون ظلموا تاريخياً، وفي عهد علي عبدالله صالح بالذات، نظراً إلى أن «الجمهورية» اعتبرتهم دائماً خارجها، وأنهم ما زالوا في صفوف الملكيين. على سبيل المثال وليس الحصر، هناك مغالطتان في الحديث الذي أدلى به علي عبدالله صالح إلى قناة «الميادين» في أكتوبر (تشرين الأول) 2015.

المغالطة الأولى: تتعلق بتقليص حجم الدور الإيراني في اليمن.

المغالطة الثانية: محاولته التقليل من قدرته على السيطرة على قسم من القوات المسلّحة اليمنية. الرجل لا يزال يلعب دوراً رئيساً في اليمن؛ نظراً إلى وجود قوات ما تزال موالية له، على الرغم من أن الرئيس عبد ربّه منصور سعى مباشرة بعد توليه الرئاسة إلى إجراء تشكيلات عسكرية لم يكن لها من هدف سوى ضرب نفوذ علي عبدالله صالح ونجله.

الأكيد أن نفوذ علي عبدالله صالح في الجيش لم يعد كما كان في الماضي. لكنّ الأكيد أيضاً أن هذا النفوذ ما يزال موجوداً، وهو يتضاءل مع مرور الوقت. ما لا يعرفه كثيرون أن الضربات الجوية التي نفّذها التحالف ألحقت خسائر بالقوات النظامية التابعة لعلي عبدالله صالح أكثر بكثير مما ألحقت من أضرار بـ«أنصار الله» الذين لا يمتلكون مراكز ثابتة، إضافة إلى أنهم يمارسون ما يعرف بـ«حرب العصابات».

اعتمد الحوثيون في تمددهم نحو الوسط والجنوب على علي عبدالله صالح. هو الذي خلقهم. هم الذين انقلبوا عليه. لكنّ كل منهما عاد إلى الآخر في المرحلة الراهنة، لأن لا غنى لعلي عبدالله صالح عن الحوثيين ولا غنى للحوثيين عنه. إلى متى سيبقى هذا التحالف قائماً، خصوصاً أن القياديين الحوثيين في صنعاء ليسوا مغرمين بالرئيس السابق الذي يحتفظ في المقابل بعلاقة طيبة مع عبدالملك الحوثي، الذي لم يخرج يوماً من اليمن، وثمّة من يقول إنه لم يخرج يوما خارج حدود صعدة؟

مستقبل العلاقة بين علي عبدالله صالح و«أنصار الله» سيكون من عناوين المرحلة المقبلة التي ستحدّد مصير اليمن في ضوء «عاصفة الحزم» التي ليس هناك ما يشير إلى نهاية قريبة لها، حتّى لو توقفت العمليات العسكرية في مرحلة معيّنة، وشهدت المفاوضات الدائرة في الكويت نوعاً من الانفراج في حين أنها في طريق مسدود. فالسؤال الذي سيظل مطروحاً في كلّ وقت هو: ما الذي ستفعله إيران باستثمارها في اليمن الذي نفّذت معظمه عبر «حزب الله» الذي بات يعرف البلد جيّداً، والذي لم يكتف بتدريب «أنصار الله» على السلاح وعلى خوض المعارك، بل إنه يشرف مباشرة على إعلامهم؟ ليس سرّا أن الفضائية التابعة لـ«أنصار الله» واسمها «المسيرة» تبث من بيروت، وهي في حماية الحزب.

لعلّ أكثر ما يعطي فكرة عن حجم التورّط الإيراني في اليمن، عبر «حزب الله»، الحملة التي يشنّها الأمين العام للحزب على المملكة العربية السعودية منذ بداية «عاصفة الحزم». تبدو هذه الحملة التي لا سابق لها في المنطقة العربية مؤشراً على أن الحرب التي تخوضها إيران في اليمن هي حرب «حزب الله» أوّلاً.. وأن المفاجأة

المتمثّلة في «عاصفة الحزم» كانت مفاجأة للحزب الذي التزم المشروع الإيراني في اليمن، وفشلاً له قبل أيّ شيء آخر.

إيران في اليمن بعد «عاصفة الحزم»

ما لا بدّ من التوقف عنده في البداية، أن إيران لم تكن تعتقد يوماً أن دول الخليج العربي يمكن أن تذهب بعيداً في التصدي لها في اليمن، وأن تقضي على مشروعها الهادف إلى وضع اليد على البلد. كانت تظن أنها استطاعت فرض أمر واقع مستغلة الحلف الجديد الذي قام بين الحوثيين وعلي عبدالله صالح. نشأ هذا الحلف بعدما سيطر «أنصار الله» على صنعاء بسبب ضعف الرئيس الانتقالي عبد ربّه منصور هادي، الذي رفض التصدي للحوثيين في عمران معتقدا أن علي عبدالله صالح كان يريد جرّه إلى فخّ عن طريق توجيه نصيحة له بضربهم في مناطق بعيدة عن العاصمة.

ليس هناك ما يشير إلى إمكان التوصل إلى حل سياسي في اليمن، في ظل التوازن العسكري القائم من جهة، وغياب الشخصيات التاريخية. هذه الشخصيات هي التي يمكن أن تتخذ قرارات كبيرة من بينها صيغة لدولة فيدرالية، أو كونفيدرالية، تأخذ في الاعتبار أن الوحدة لم تعد قائمة، وأن لا مجال للعودة إلى صيغة الدولتين المستقلتين، أي الشمال والجنوب من جهة أخرى.

تكمن إحدى مشاكل اليمن حالياً في غياب الزعامات القبلية في الشمال؛ سواء أكان ذلك في حاشد أم بكيل، وانتهاء صلاحية الذين كان لديهم رصيد شعبي في الجنوب في مرحلة ما. أمّا الوسط، وعلى رأسه تعز، فكان دائما منطقة بعيدة عن المشاكل، لا هم للشخصيات البارزة فيها سوى تدبر أمورها بالتي هي أحسن. لذلك ليس صدفة أن يكون أبرز تجار اليمن من تعز والمناطق المحيطة بها. كذلك، معظم الصناعة اليمنية موجودة في تعز وجوارها.

لا شكّ أن إيران أخذت علماً بالواقع الجديد. وقد أظهرت الأحداث المتتالية منذ بدء تدخلها في اليمن في مطلع ثمانينيات القرن الماضي، أن قدرتها على التكيف

كبيرة، كما أن لديها جلدا لا يمكن مقارنته بأي جلد آخر.

ما يبدو الأقرب إلى المنطق حالياً هو استمرار تدخلّها عبر «حزب الله» وغير «حزب الله» مستخدمة بعض الدول القريبة من اليمن لنقل أسلحة إليه مع بعض الأموال في زوارق صغيرة. وهذا ما يحصل انطلاقا من إريتريا، وكان يحصل في الماضي انطلاقاً من السودان.

ليس مستبعدا أن تلجأ إيران إلى استعادة تجربة قطاع غزّة في اليمن. بعد حرب نهاية عام 2008 وبداية 2009 في قطاع غزّة، عملت إيران على المحافظة على «حماس» واستخدمتها استخداماً جيداً في عملية إطاحة حسني مبارك لاحقا، ثمّ في دعم حكم الإخوان المسلمين الذي لم يستمرّ طويلا.[5] ما تزال غزّة محاصرة منذ ما يزيد على ثماني سنوات، لكن «حماس» ما زالت حيّة ترزق على الرغم من أنها باتت عاجزة عن التمدّد إلى الضفّة الغربية. كل ما تستطيع «حماس» عمله الآن هو منع عودة الوضع إلى طبيعته بين الضفة الغربية وغزّة، ومنع أي حلول أو تسويات من أيّ نوع كان، وهي تلتقي بذلك مع رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتانياهو، ومع السياسة الإيرانية في الوقت ذاته.

ما الذي يمنع تحوّل صنعاء ومحيطها إلى ما يشبه «الإمارة الإسلامية» التي أقامتها «حماس» في غزّة؟ أليس حلم عبدالملك الحوثي العودة إلى النظام الإمامي، أي إلى ما قبل عام 1962 على بقعة من الأرض اليمنية باسم «الشرعية الثورية»؟ فالحوثي انقلابي أكثر من أيّ شيء آخر، وهناك من يعرف كيف يتم توجيهه والإفادة منه بشكل جيّد ومدروس في آن.

ستكون بقعة الأرض هذه واسعة، إذ يمكن أن تمتد من صنعاء إلى بعض أحياء تعز. ستكون منطقة نفوذ إيرانية تسمح بممارسة لعبة الانتظار، وهي اللعبة المفضّلة لدى الإيرانيين، فوضع أهل صنعاء وتعز وإب وحجة والحديدة وعمران وصعدة والجوف ومأرب، آخر ما يهمّ الحوثي أو «حزب الله» أو إيران... ما دام المطلوب

(5) مجموعة من السياسيين اليمنيين يلتقون قيادات حوثية بين حين وآخر.

استخدام اليمن في زعزعة الاستقرار في شبه الجزيرة العربية، وإثارة الغرائز المذهبية بكلّ أنواعها.

هناك –باختصار– استعداد إيراني لاستغلال اليمن واليمنيين إلى أبعد الحدود في حرب استنزاف؛ قد تتخذ شكل الحرب الباردة، مع أهل الخليج. هل في اليمن من يعي ذلك، ومن يعي خطورة مثل هذه المخططات على البلد الأكثر فقراً بين البلدان العربية؟ مفهوم أن مستقبل اليمن لا يهمّ إيران، ولكن هل بين اليمنيين من يهمّه مستقبل اليمن؟